جمهورية مصر العربية	٤ من صفر ١٤٣٨هـ
وزارة الأوقاف	٤ من نوفمبر٢٠١٦م

(١)

الإيثار .. خلق إسلامي وقيمة إنسانية

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابه العزيز:{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ، وبعد :

فإن من مكارم الأخلاق التي دعا إليها ديننا الإسلامي الحنيف وأمر بها أتباعه: خلق الإيثار ، ومعناه : تقديم الإنسان غيرَهُ على نفسه فيما هو في حاجة إليه من أمور الدنيا راجيًا ثواب الآخرة ، وهو خلق كريم ، وسلوك قويم، وقيمة إنسانية راقية ، وصفة يتميَّزُ بها المؤمن عن غيره ، وهو خلق يجمع صاحبه عددًا مِن الأخلاق الحسنة والخِلال الحميدة كالرَّحمة وحبِّ الخير للغير والسَّعي لنفع النَّاس ، بعيدًا عن الأنانية وحب الذات وغير ذلك من الأخلاق السَّيِّئة والخِلال الذَّميمة.

إضافة إلى أن خلق الإيثار من أسمى صور الرُّقِيِّ الأخلاقِيِّ ، فمِنْ خلالِهِ يستطيعُ المؤمنُ أَنْ ينتصر على نفسه ويتغلَّب عَلَى هواهُ طاعةً للهِ (عز وجل)، وهو مرتبة عالية مِن مراتب البذل والسخاء ، ومنزلة عظيمة من منازل الإنفاق.

ولقد أثنى الله (عز وجل) على أصحاب هذا الخلق النبيل ، ومدَح المتحلِّين به وبيَّن أنَّهم أهل الفلاح في الدُّنْيا والآخرة ، فقال سبحانه : {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

إن الإيثار في الإسلام خُلقٌ يجعل المؤمن يحب الخير لغيره ، فيجودُ بنفسه وماله لإسعاد الآخرين ، ومن ثمَّ تقوَى الروابط ، وتتوثَّق العلاقات ، وتسود المودة والمحبة بين المسلمين ، فهو شعار وضعه النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله : (لا يؤمنُ أَحدُكم حتَّى يحبَّ لأَخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ).

وإذا نظرنا إلى هذا الخلق النبيل وجدنا أنه خلق من أخلاق سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): (لَوْ شِئْنَا أَنْ نَشْبَعَ شَبِعْنَا ، وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ)، فكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُؤثِرُ غيره علَى نفسِهِ وعلَى أهْلِ بيتِهِ معَ شدةِ حاجتِهِمْ .

وها هو (صلى الله عليه وسلم) تأتيه امرأة بِبُرْدَةٍ ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْسُوكَ هَذِهِ. فَأَخَذَهَا النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَلَبِسَهَا، فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَأكْسُنِيهَا ، فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَلَمَّا قَامَ النبي (صلى الله عليه وسلم)لاَمَهُ أَصْحَابُهُ ، قَالُوا : مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا ، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لاَ يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) لَعَلِّى أُكَفَّنُ فِيهَا). فكان (صلى الله عليه وسلم) يؤثر غيره على نفسه في كل الأحوال .

ثم دعا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أصحابه إلى التحلي بخلق الإيثار ليكون

واقعًا سلوكيًّا وعمليًّا في حياتهم ، وذلك بمخالفة النفس ومقاومة الأنانية وحب الذات ، حيث قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) .

ولقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أروع الأمثلة في تحقيق هذا الخلق العظيم وبذل الخير للغير رغم الحاجة إليه ، فصار هذا الخلق سجية لهم ، فعن أَبي هُرَيْرَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ».

فقمة الإيثار أن يحب الإنسان لأخيه أكثر مما يحب لنفسه ، وأن يفضل منافع الغير ويقدمها على منافعه رغبة في إرضاء الله (عز وجل) وطمعًا في ثوابه ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: (أُهْدِيَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَأْسُ شَاةٍ ، فَقَالَ: إِنَّ أَخِي فُلَانًا وَعِيَالَهُ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا،

قَالَ: فَبَعَثَه إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهِ وَاحِدٌ إِلَى آخَرَ حَتَّى تَدَاوَلَتْهَا سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الْأَوَّلِ.

ولقد سجل التاريخ مواقف خالدة بأحرف من نور ، لأناس آثروا غيرهم على أنفسهم ، وزينوا صفحات حياتهم بزينة الإيثار وحب الخير للغير ، حتى كان خلق الإيثار شعارًا لهم ، ورمزًا لإيمانهم ، ومن ذلك ما حدث مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا سعد بن الربيع (رضي الله عنهما) حين آخى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينهما ، فقال سيدنا سعد لسيدنا عبد الرحمن: (إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا ، قَالَ له سيدنا عبد الرحمن : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ) .

وهذه صورة مشرقة من قيمة الإيثار بلغت غايتها ونهايتها ، حين يؤثر الأخُ أخاه على نفسه بشربة ماء هو أحوج ما يكون إليها في لحظاته الأخيرة ، فعَنْ أَبِي جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ الْعَدَوِيِّ ، قَالَ: " انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي ، وَمَعِي شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ ، أَوْ إِنَاءٍ ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَغُ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَأَشَارَ: أَيْ نَعَمْ ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: آهٍ، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِيَ أَنْ أَنْطَلِقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرٍو، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَسَمِعَ آخَرَ فَقَالَ: آهٍ ، فَأَشَارَ هِشَامٌ : أَنْ أَنْطَلِقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَجِئْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، فَرَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ ، فَرَجَعْتُ إِلَى ابْنِ عَمِيَ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ". فقد فضَّل كلُّ واحد منهم أخاه على نفسه ، وآثره

بشربة ماء ، حتى مات الثلاثة على خُلُقِ الإيثار.

إن الإيثار خلق عظيم القدر ، عالي المكانة ، رفيع المنزلة، لا يتخلَّق به إلاَّ أصحاب القلوب العامرة بالإيمان ، والتي عرفت ربها تمام المعرفة ، وفَهِمت دينها حق الفهم ، واحترمت إنسانيتها فتحقَّق لها القرب من الله (عز وجل).

جدير بالذكر أن خُلُقَ الإيثار من أهم أسباب التراحم بين المسلمين ، ولنتذكر جميعًا قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ شَيْءٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). فوجود الإيثار في المجتمع دليلٌ على وجود حس التَّعاون والتَّكافل والمودَّة.

وللإيثار ثمرات عظيمة تعود بالخير والنفع على الفرد والمجتمع ، منها : أنه يجلب لصاحبه محبّة الناس ، ويُذهبُ عنه حقدهم وحسدهم ، ويزيده رفعة ومنزلة في الدنيا والآخرة ، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها وتعظيم من يؤثرها ، مع ما يجلبه الإيثار من البركة في المال والولد ، فضلاً عما يجده صاحبه من الثواب الكبير والأجر العظيم والخير العَمِيم في الآخرة ، قال تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا}، ويقول سبحانه:{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْرًا}.

ومن ثمرات الإيثار : أنه يسهم في تحسين العلاقات والروابط الإنسانية،

ويحافظ على تماسك الأفراد والمجتمعات ، فيتحقق التواد والتراحم والتآلف وغيرها من المعاني النبيلة التي تسهم في تقدم الشعوب وتحضرها.

وللإيثار درجات ومراتب : أولها ، وهي أعلاها وأفضلها : إيثار مرضات الله تعالى على مرضات العباد، وهذا ما كان عليه الأنبياء والمرسلون والمخلصون في كل زمان ومكان ، لأنهم علموا وأيقنوا أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا الله تعالى على رضا غيره ، عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ).

المرتبة الثانية : إيثار الخلق على النفس فيما يرضي الله (عز وجل) ، وهذه هي درجات المؤمنين المخلصين ، وأسمى صور هذه المرتبة أن نقدم المصلحة العامة على المصالح الخاصة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. إخوة الإسلام :

كما دعا الإسلام إلى التخلق بخلق الإيثار فقد حذَّر أشد التحذير من حب الذات والأنانية وإيثار الفانية على الباقية حيث يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}.

وإذا كنا نحث على الإيثار والتكافل والتراحم ولا سيما في وقت الشدائد والأزمات ، فإننا بالقدر نفسه وزيادة نحذر من الشح والبخل والاحتكار والغش والتلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الضرورية والأساسية ، فقد نهى الإسلام عن كل ألوان الغش والاحتكار ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (... مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) ، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَاطِئٌ) ، وفي رواية : (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله ، وَالله بَرِئٌ مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعًا ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ الله).

فما أحوجنا إلى التخلي عن هذه الآفات ، والتخلق بخلق الإيثار ، والحرص على تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة حتى نرتقي بمجتمعنا وأمتنا .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يطهر نفوسنا من الشح والبخل والأنانية وحب الذات ، وأن يشرحها للإيمان والكرم والسخاء والإيثار.